ومات ليعقوب ولدٌ اسمه صالح قد بلغ خمساً وعشرين سنة، وكان ولداً حسناً، فخرج يعقوب في جِنازته، ولم يبكِ عليه، [والناس يبكون، وهو صابرٌ محتسب،][1] وكان يحكي [لي][1] عن مغارة الجوع العجائب، وأنه يرى فيها الرجال في الليل، وأن باب المغارة يفتح ويخرج منه أشخاصٌ عجيبة، وكانت وفاته بقاسيون، ودفن عند المغارة.

السنة الثامنة والثلاثون وست مئة

فيها سَلَّم الصَّالح إسماعيل الشَّقيف لصاحب صيدا، وعزل ابن عبد السَّلام من الخطابة وحبسه، وحبس أيضاً أبا عمرو بن الحاجب، لأنَّهما أنكرا عليه فِعْلَه، فحبسهما مُدَّة، ثم أطلقهما، وأمرهما بملازمة بيوتهما، وولَّى العمادَ ابنَ خطيب بيت الآبار الخطابة.

وفيها سَلَّم الحافظ قلعة جَعْبر إلى الحلبيين، وعوَّضوه أعزاز، وكان قد ضربه الفالج، وكان ولده قد مضى إلى الخُوارَزْمية يطلب منهم عسكراً ليحاصره، فخاف، وجاء إلى حلب.

وفيها ظهر بالرُّوم رجلٌ تركماني يقال له: البابا، وادَّعى النُّبوة، وكان يقول: قولوا: لا إله إلا الله، البابا وليُّ الله. واجتمع إليه خَلْقٌ عظيم، فجهَّز إليهم صاحب الرُّوم جيشاً، والتقوا، فقتل منهم أربعة آلاف، وقتلوا البابا.

وفيها وصل رسول خاقان ملك التَّتر إلى شهاب الدين غازي بميَّافارِقِين، ومعه كتابٌ إليه وإلى ملوك الإسلام يأمرهم بالدُّخول في طاعته، وكان في عنوان الكتاب: من نائبِ رَبِّ السَّماء، ماسح وَجْه الأرض، ملك الشَّرْق والغرب قاقان، وقال لشهاب الدِّين: وقد جعلك سلحداره، وأمرك أن تخرب أسوار بلادك جميعها. فقال له شهاب الدين: أنا من جُمْلة الملوك، وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الرُّوم والشَّام ومِصْر، فتوجَّه إليهم، فمهما فعلوه فعلته.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

وكان هذا الرَّسول شيخاً، لطيفاً، مُسْلماً، من أهل أصبهان، حكى لشهاب الدِّين عجائب، منها: أنه قال: بالقرب من بلاد قاقان، قريباً من بلد يأجوج ومأجوج على البحر المحيط أقوام، ليس لهم رؤوس، وأعينهم في مناكبهم وأفمامهم، وإذا رأوا النَّاس هربوا، وعيشهم من السَّمك.

ومنها: أَنَّ هناك طائفةً تزرع في الأرض بزراً، فيتولَّد منه غنم كما يتولَّد دود القز، ولا يعيش الخروف أكثر من شهرين أو ثلاثة مثل بقاء النَّبات في الأرض، وهذا الغنم لا يتناسل.

ومنها: ذكر أَنَّ بمازَنْدران عين ماء يطلع منها في كلِّ ستة وثلاثين سنة حَيَّة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النَّهار، فإذا غربت الشمس غاصت في العين، فلا تُرى إلى مثل ذلك الوقت، وقيل: إنَّ بعضَ ملوك العجم جاء بنفسه إليها في مثل ذلك اليوم، وربطها بسلاسل وحِلَق عِظام إلى أساطين حولها، واستوثق منها، فلما جاء وقت الغروب قطعتِ السلاسل، وغارت في العين، وهي إلى الآن إذا طلعت رأوا السلاسل في وسطها[1].

وفيها جاء عسكر حلب إلى حَرَّان، ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، والتقوا، فانكسرتِ الخُوارَزْمية، وأنكى فيهم الحلبيون قَتْلاً وأَسْراً، وهرب بركة خان إلى الخابور، وأخذ المنصور حَرَّان، وعصت عليه القلعة.

وفيها اختلف عسكرُ مِصْر على الصَّالح أيوب، فقبض على جماعة.

وفيها تسلَّم الرُّوم آمِد بعد حصارٍ شديد، فيقال: إنَّهم اشتروها بثلاثين ألف دينار.

[وفي هذه السنة ـ وهي سنة ثمان وثلاثين وست مئة ـ قدمت دمشق من القدس، فأشار السامري وزير إسماعيل الصَّالح عليه بإخراجي من دمشق، وكان لما قدمنا دسّ السامري صبياً يقال له يوسف بن يعقوب المؤذن، وكان جامكية أبيه عندنا بمدرسة شبل الدولة شيئاً يسيراً، فالتجأ يوسف إلى السامري، وصار صاحب خبر له، فتقدَّم عنده،

(١) هذه أخبار لا تصح عند من له آثارة من علم وعقل.

وصار مدرساً بالشِّبْلية، فلما قدمت دمشق حضر إلى عندي يوسف، وجرى حديث إخراج نجم الدين أيوب، وأنه لما خرج من الحبس بالكرك اجتمعنا بالقدس، وجرى بيننا مفاوضات، فمضى يوسف إلى السامري، وكذَّب، وقال: ما أخرج نجم الدين من الحبس إلا فلان. عني، فأخرجونا في حر شديد إلى حماة، فصعد بخار عظيم إلى رأسي، وأتلف عيني، وكادت تذهب، وما حكم أحد بسلامتها، فمنَّ الله بالعافية، وعدت إلى دمشق على رغم أنف السامري، وأحياني الله حتى رأيت يوسف بن يعقوب في باب الحبس الصغير، حبسه الملك الناصر صاحب حلب، وأقام شهوراً ومات، وشنق السامري عدو الله، وعجل الله بروحه إلى عذاب السعير، وذهب الخمير والفطير][1].

وفيها كانت الوقعة بين الحلبيين والخُوارَزْمية، وكان الجواد والصَّالح ابن صاحب حمص مع الخُوارَزْمية، فقصدوا حلب، ونزلوا على باب بُزَاغة في خمسة آلاف، فخرج إليهم عسكر حلب في ألف وخمس مئة، فكسروهم كسرةً عظيمة، وأسروا أمراءهم، ونهبوا أثقالهم، وساقوا إلى حَيْلان، وقطعوا الماء عن حلب، وضايقوها، ثم عادوا إلى مَنْبج، فنهبوها، وقتلوا أهلها، وفضحوا نساءها، وعادوا إلى حَرَّان، وكان المنصور صاحب حمص نازلاً على شَيْزَر، فاستدعاه الحلبيون، فجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها، ومعه عسكر حمص ودمشق.

وفيها توفي

أحمد بن محمد[2]

ابن خلف بن راجح، المقدسي.

القاضي نجم الدين الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشَّافعي، وولي القضاء بدمشق نيابةً، وكان فقيهاً، صالحاً، فاضلاً، مات في شوَّال، ودفن بقاسيون.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٥٦٣، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٥٥-٥٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

محمد بن عربي[١]

الشيخ المشهور.

كان فاضلاً في علوم الحقائق، وله المصنَّفات الكثيرة، و[حُكي لي أنه][٢] كان يقول: أعرف الاسم الأعظم، وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكتب، وكانت وفاته بدمشق في دار القاضي محيي الدين [بن زكي الدين][٢]، وغسله الجمال ابن عبد الخالق، ومحيي الدِّين[٣]، وكان العماد بن النحاس يصُبُّ [الماء عليه][٢]، وحمل إلى قاسيون، فدفن بتربة القاضي محيي الدِّين.

[فصل: وفيها توفي

نور الدولة بن القواس

وكان عدلاً، خيِّراً، غزير المروءة، واحتاط الصالح إسماعيل على تركته][٢].

السنة التاسعة والثَّلاثون وست مئة

فيها قَصَدَ الجوادُ ديارَ مِصْر ملتجئاً إلى الصَّالح أيوب، ومهاجراً إلى بابه، فعبر الرمل، فخاف أيوب منه، وعَزَمَ على قَبْضه، فرجع إلى النَّاصر داود، والتجأ إليه، وجاء كمال الدِّين بن شيخ الشيوخ، فنزل غَزَّة، وكان النَّاصر بالقدس، فجاء إليه الجواد، واتفقا، وأقام النَّاصر بالقدس، وجَهَّز العسكر مع الجواد، وجاء الكمال، والتقوا على مكانٍ يقال له: بيت فوريك، فكسره الجواد، وأخذ الكمال [بن الشيخ][٢] أسيراً، فجيء به إلى النَّاصر فوبَّخه، فقال له الجواد: لا توبخه. وأقام الجواد عند النَّاصر، فتخيَّل منه، فاعتقله، وبعث به إلى بغداد في البرية تحت الحوطة، فنزل قريباً من الأزرق، فعرفه بطنٌ من العرب، فأطلقوه، فعاد إلى دمشق، وأقام في خدمة

(١) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٥٥٥، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٥٤-٥٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) محيي الدين هذا هو ابن محمد بن علي، ووالده محمد بن علي يلقب كذلك بمحيي الدين، وكان قاضياً، وتوفي سنة (٥٨٩هـ)، وقد ولي محيي الدين هذا القضاء كذلك كما سيأتي ص٣٨١ من هذا الجزء.